مدير أحواض دانسج جينيش فى محاولة للتفاوض مع العمال المضربين واحدى العاملات ترد عليه فى المجادلون

نحن فى عصر مابعد بولندا

بينما كان الزعيم البولندى ادوارد جيريك يمر بسيارته الليموزين أمام احد المجمعات الاستهلاكية حيث تباع اللحوم وقع بصره على طابور طويل لا آخر له يسعى كل فرد فيه للفوز بقطعة من اللحم. أثار هذا المشهد ضيق جيريك فأخرج رأسه من نافذة السيارة وصاح هاتفا أيها الرفاق سأساعدكم. وبعد ذلك بقليل فوجئ البولنديون بسيارة لورى ضخمة تحمل عددا كبيرا من الكراسى ليجلس الواقفون

طابور المشترين أمام محل لبيع اللحوم فى مدينة دانسج فى بداية الصيف

عبد المنعم مصطفى

وماسبق ليس إلا «كاريكاتير» لشرنه إحدى المجلات البولندية تعليقا على الأحداث الأخيرة فى بولندا . وكأن المجلة أرادت بذلك أن تصم الزعيم البولندى بالعجز الذى يعنى أنه ليس لديه ما يقدمه لمواطنيه سوى كلمات الرثاء أو أنه هو نفسه قد انعزل فى برج السلطة العاجى فلم يعد يرى أو يسمع أو يعرف كيف تعانى الجماهير وكيف تمكن مواجهة هذه المعاناة .

وماتحدث فى بولندا هو ظاهرة فذة تستحق الدراسة إذ أنها تثير سؤالا هاما بسبب التناقض الظاهر بين المقدمات والنتائج فوقوع اضطرابات عمالية والإضراب عن العمل بالإضافة إلى مطالبة المضربين بتشكيل نقابات عمالية حرة . كل ذلك يحمل على التساؤل : إذا كانت بولندا هى إحدى دول المنظومة الماركسية التى أعلنت مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا أو الطبقة العاملة أى تلك النظرية التى تقول إنه رغما للظلم عن طبقة العمال فإن هذه الطبقة ذاتها هى التى ينبغى أن تكون سيدة مصيرها وأن تكون على رأس جهاز السلطة فى الدولة فلماذا الإضراب إذن ؟ ! وضد من تتشكل النقابات الحرة وهل ذلك لحماية العمال من حكومة العمال ؟ !

ولا تعدو مطالب العمال البولنديين سوى أمرين لاثالث لهما . إما أن الطبقة العاملة ليست هى الطبقة الحاكمة . وإما أن الطبقة العاملة الحاكمة قد انعزلت بحكم واقعها الجديد على قمة السلطة عن مصالح وآمال وآلام الجماهير وباختصار فإنه يعنى أن الشيوعية فى بولندا تعانى من الانفصام . ولكن لماذا بولندا بالذات ؟

تكاد ظاهرة الاضطرابات والإضرابات العمالية فى الدولة الشيوعية تكون حكرا على بولندا التى عرفت الإضرابات منذ عرفت الشيوعية . لكن كل ذلك كان نتيجة طبيعية لمقدمات صحيحة من بينها : أن سلطان الدين فى بولندا مازال أقوى من سلطان الدولة وأجراس الكاتدرائيات ومآذن المصلين مازالت أعلى من شعارات لينين . وهذا ما أكده البابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان البولندى الأصل أثناء زيارته التاريخية لبولندا . فأمام ملايين البولنديين أعلن إدوارد جيريك زعيم الحزب الشيوعى البولندى فى كلمة الترحيب التى ألقاها بمناسبة وصول البابا « أنظر يا قداسة البابا إن ما تراه فى بولندا هو حصاد ثلاثين عاما من الشيوعية » . ولم يدع البابا الفرصة تفوته قبل أن يرد مؤكدا : « سيدى الرئيس . إن بولندا تناح ألف عام من الكاثوليكية » .

إن لدى الشعب البولندى نفورا طبيعيا من السوفيت مرده إلى الحرب البولندية الروسية عام ١٩٢٠ التى انتصر فيها البولنديون . وكذلك إلى الآلام التى عانت منها بولندا تحت زحف القوات السوفيتية فى الحرب العالمية الثانية بالإضافة إلى ما تكشف بعد ذلك من اتفاق السوفيت مع هتلر فى معاهدة عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ على ضم جزء من بولندا إلى الأراضى السوفيتية . وقد حدث منذ أيام أن شبه الكاردينال فيشنسكى راعى كنيسة سانت أنا البولندية انتصار الملك برهان سوبيسكى وهو الذى انتصرت أوروبة تحت قيادته فى القرن السابع عشر على تركيا — بانتصار دولة بولندا على الدولة السوفيتية الفتية عام ١٩٢٠ . فتوجه المصلون بعد ذلك إلى مقابر ضحايا حرب ١٩٢٠ رافعين شعارات الحرب ومنددين بما وصفوه بالدعايات الكاذبة للنظام البولندى .

ان بولندا هى الوحيدة بين دول المعسكر الماركسية التى لم تفسدها الإضرابات العمالية بقدر ما أكدت حيوية شعبها الذى استطاع عبر ثلاثين عاما أن يضيف مزيدا من المكاسب للحرية وحقوق الإنسان حيث تصدر هناك أكثر من ١٢ صحيفة ومجلة سرية بشكل شبه منتظم وحيث يناقش البولنديون قضاياهم العامة بحرية كاملة ويستمعون إلى كافة الإذاعات الغربية ويقرأون صحافتها . وباختصار فكل ذلك هو نتاج الطبيعة الخاصة للشخصية البولندية التى عشقت الموسيقى وتذوقت بالحرية .

إن حقبة إدوارد جيريك التى بدأت فى عام ١٩٧٠ قد تميزت بتحقيق مزيد من المكاسب عن طريق الليبرالية . ولدى جيريك ذاته ميول

احد العاملين فى احواض ميناء دانسج وهو يلقى بالمنشورات على العمال المضربين فى ساحة الميناء.

البرالية واضحة فهو الذى اتاح هذا الانفتاح الثقافى لبولندا على الغرب وهو صاحب سياسة الطفرة الاقتصادية حيث تميزت فترة حكمه بتزايد حجم الاستثمارات والديون أيضا . فقد ارتفعت معدلات الاستثمار فى أوائل السبعينات بنسبة كبيرة بلغت ١٨.٤٪ عام ١٩٧٠ ، و٢٣.٦٪ عام ١٩٧٢ و٢٥٪ فى عام ١٩٧٣ ، ووقفت بولندا فى مقدمة الدول الصناعية الكبرى فهى تاسع دولة فى انتاج الصلب والأسمنت والعاشرة فى الطاقة والثانية عشرة فى إنتاج سيارات الركوب . بل إن بولند اصنعت لنفسها اسما فى عالم انتاج أجهزة الكمبيوتر . لكن هذه الطفرة الاقتصادية كانت باهظة التكاليف إذ تزيد ديون بولندا على ١٩ مليار دولار وهذا فقد ارتفعت الأسعار بشكل جنونى بينما معدلات الزيادة فى الأجور محدودة.

وبسبب سياسة جيريك تحول المواطن البولندى إلى مستهلك يحترف الوقوف فى الطوابير . أى أنه مستهلك لسلع نادرة يتزاحم الناس للحصول عليها حتى باتت مسألة الطوابير هذه أمر يتندربه البولنديون على أنفسهم . وكان لابد حتى يكون مستهلكا حقيقيا أن تتوافر لديه القدرة الشرائية .

وإذا كان نابليون بونابرت هو صاحب مقولة أن الجيوش تزحف على بطونها . فإن التاريخ هو صاحب الحقيقة القائلة بأن الشعوب أيضا تثور إذا جاعت أى أنها تهتف من أمعائها ، يسقط الجوع ومن وراءه . . وهذا بالضبط مايحدث فى بولندا وماحدث قبل ذلك فى ليبريا حين أطاح الجوع بأكثر النظم استقرارا فى أفريقيا . واذا جاءت لنا تسمية مايحدث فى جدانسك بهضبة اللحم فقد تضاعفت أسعار اللحوم والمواد الغذائية فى السنوات الأخيرة بدرجة كبيرة إلى الحد الذى لم يعد باستطاعة البولنديين احتماله وأصبحت البطون الخاوية لعشاق الموسيقى تعزف سيمفونية الجوع.

وصحيح أن الأحداث الأخيرة فى بولندا بدأت بالمطالب الاقتصادية للعمال والخاصة بزيادة المرتبات وتخفيض الأسعار وتوفير السلع إلا أنها ارتفعت إلى مستوى المطالبة بحق الإضراب وحرية تشكيل نقابات عمالية حرة وحرية الفكر وحق ممارسة الشعائر الدينية . . وهى مطالب

ادوارد جيريك . . هل يختار المنفى ؟ !

الانهيار الاقتصادى سبب رواجا لتجارة القطاعى

سياسية جديدة وغريبة تماما على المجتمع الشيوعى . اذا ماستجابت لها السلطات البولندية يمكن أن تحرك النظام البولندى نحو اللامركزية لتصبح بولندا وعاء للكاثوليكية والشيوعية وللامركزية والأفكار الليبرالية والسلع الغربية معا.

والملاحظ أن الحكومة البولندية قد تقدمت بتنازلات كبيرة للعمال المضربين لكن هذه التنازلات لم ترض طموحات العمال المطالبين بالخبز والحرية معا . فالتنازلات الإضرابات مستمرة بل يتسع نطاقها كل يوم بشكل يهدد الحياة الاقتصادية فى بولندا تماما . ولكن الى أى حد يستمر العمال فى الضغط وتستمر الحكومة فى التنازل ؟ .

مما لاشك فيه أن لدى حكومة وارسو حدود معينة لايمكنها أبدا مجاوزها فى تعاملها مع هذه المشكلة لعل أهمها : الحرص على استمرار النظام القائم بقيادة إدوارد جيريك .

الحرص على التماسك بشكل كاف لايجرى الاتحاد السوفيتى بتكرار تجربة المجر وتشيكوسلوفاكيا . ولاشك أيضا أن لدى العمال المضربين حدودا يمكنهم عندها قبول التسوية . وحدودا أخرى يتوقفون عندها عن مواصلة الضغط . أما الحدود الأولى فهى تتضمن استجابة الحكومة للمطالب الخاصة برفع الأجور ورفع المعاناة وكذلك الخاصة بحق العمال فى تشكيل نقاباتهم الحرة وتتزايد أهمية هذا المطلب الأخير على ضوء الخوف من بطش النظام بأولئك الذين هزوه بعنف .

وفى حالة قبول الحكومة البولندية لهذا المطلب الأخير الخاص بحرية العمل النقابى فإننا نصبح فى مواجهة تجربة جديدة تماما حيث تولد مؤسسات ديمقراطية حرة لحماية العمال والدفاع عن مصالحهم ليس ضد أصحاب الأعمال كما هو مألوف ومفترض ولكن ضد الدولة التى رفعت شعار ديكتاتورية البروليتاريا ؟ ويمكن لهذه المؤسسات أن تؤثر بالتالى فى صنع وصياغة القرار السياسى فى بلادها على نحو قد يتيح تحريك التطبيق البولندى للمركزية صوب مزيد من التحرر أو نحو طرح صيغة جديدة قد يتطلع اليها الآخرون فى شرق أوروبا .

وليس من المتصور أن تستمر عملية الجذب العنيف بين الحكومة وجماعات المضربين إذ قد يؤدى ذلك إما إلى سقوط النظام وإما إلى التصدى المسلح للعمال المضربين وهذان الاحتمالان مازالا خارج دائرة الاحتمالات المرجحة بسبب حسن معالجة الطرفين للمشكلة .

ومع تزايد اشتعال الأزمة يكثر الحديث عن احتمالات التدخل السوفيتى فى بولندا خاصة ان تجربة المجر وتشيكوسلوفاكيا مازالتا فى الأذهان لكن الحديث عن الموقف السوفيتى ينبغى أن يبدأ أولا بمحاولة التعرف على محددات هذا الموقف . أو العوامل التى تسهم فى صياغته وأهم هذه المحددات هى :

□ أن الاتحاد السوفيتى قد دخل أفغانستان ولم يخرج بعد وهذا فإن التدخل فى بولندا محكوم بحرص السوفيت على عدم فتح جبهتين للعمل فى وقت واحد .

□ حرص الاتحاد السوفيتى على المعنى الشق من الوفاق . أو بعبارة أدق حرصه على توفير المناخ المعقول للحوار مع الغرب وبصفة خاصة حول الأمن فى أوروبا .

□ الخوف من أن تتجاوز أحداث بولندا كل حدود الحساب وحدود الجغرافيا . فلا هو يريدها أن تسقط النظام ولاهو يريد أن تنتقل عدواها إلى جاراتها من دول المنظمة الماركسية .

وبعد محددات الموقف السوفيتى يمكن القول بأن احتمالات التدخل السوفيتى المباشر كما حدث فى المجر وتشيكوسلوفاكيا ربما كانت أقل كثيرا مما يتصور البعض لكن ذلك لايعنى أن السوفيت سيدعون القوة الناضجة تسقط فى سلة الأمريكيين إذ يبدو من صمت السوفيت تم من البيانات المتوالية التى تذيعها وكالة تاس السوفيتية أنهم راضون تماما عن الأسلوب الذى يواجه به جيريك الأزمة لكن استمرار الإضرابات قد يدفع السوفيت إلى التفكير فى البحث عن عمليات استئصال جراحى تتم فى هدوء بعيدا عن هدير المدافع وصخب الدبابات بما قد يعنى إسقاط جيريك نفسه وطرح بديل آخر له تم اجراء بعض التحركات العسكرية فى شرق أوروبا وألمانيا الشرقية بالذات فى إطار مناورات الخريف التقليدية . تم تحذير الغرب بلهجة صارمة من التدخل فى أية صورة من صوره . وهكذا قد يكون التدخل العسكرى السوفيتى المباشر احتمالا غير وارد إلا إذا أصبح سقوط بولندا وشيكا وهو مالم يسمح به العمال ومالن يسمح بحدوثه الغرب فالعمال يدركون مخاطر التدخل السوفيتى إلى حد أن مفاوضى الحكومة يستخدمون هذا الكارت فى محاولة حث العمال على إنهاء الإضراب . والغرب رغم كل شئ يعى تماما ماذا يعنى سقوط بولندا بالنسبة للسوفيت وهذا فلن يسمحوا بسقوطها .

وجدير بالملاحظة ان النظام البولندى يتحرك ببطء حركة غير ظاهرة صوب مزيد من الليبرالية وهو مانكتشفه متابعة لتجربة بولندا على مدى ثلاثين عاما . ولاشك أن الغرب والولايات المتحدة بالذات قد لعبت دورا ملموسا فى هذا الشأن من خلال المساعدات الاقتصادية والتقنية والمنح الدراسية وأيضا عبر المهاجرين البولنديين فى الولايات المتحدة والذين يسعون بدأب إلى عودة بولندا الوطن الحر .

ولعل ماقاله البابا يوحنا بولس الثانى أبرز الزعماء السياسيين للفاتيكان فى ميدان القديس بطرس أمام آلاف المصلين الذين احتشدوا للصلاة من أجل بولندا يشير إلى مايتطلع اليه الكثيرون داخل بولندا وخارجها . فقد قال البابا للجماهير ، صلوا من أجل بلدى وردتوا من بعدى : ياأبى الرب . ياأيها السيد . امنح بركاتك للوطن الحر . □